قصة قصيرة

عنقود العنب

بقلم: جميلة محمد الجوفان
السعودية

كنت جالسة على المرسم، وقدماي الصغيرتان تتدليان من الكرسي، تحاولان جاهدتين الوصول إلى الأرض. مرت من فوق رأسي.. نظرت إلى الرسم الذي لم تظهر ملامحه بعد.. زمت شفتيها بغرور.. وأكملت طريقها نحو طالبة أخرى.

توقفت عند إحدى الطالبات قائلة:

- أوه... إن رسمك جميل جداً... ما شاء الله..

ابتسمت الصغيرة.. منحتها المعلمة ابتسامة عريضة... وجذبت الكرسي المجاور.. وجلست بجانبها...

- هذه الورقة تحتاج إلى بعض التعديل... نعم هكذا... حسناً.. هكذا أفضل...

انظري... حبة العنب هذه كبيرة نوعاً ما...

ثم قامت بمسحها... أخذت القلم من يد الصغيرة... وبدأت برسمها من جديد..

- نعم... هكذا تبدو لوحتك أجمل... وهذه تحتاج....

وأكملت الرسم....

بعد دقائق قامت وكأنها تذكرت شيئاً... وبدأت تدور على رؤوسنا من جديد...

وصلتْ إلي مرة أخرى... انكمشت في مقعدي منتظرة كلمة توبيخ... لقد اعتدتُ على هذا... فما علي إلا أن أصمت حتى تبتعد بسلام...

انتفض جسمي الصغير عندما سمعتها تقول:

- رائع... لم أكن أعرف أنك تحسنين الرسم! وأخذت تتمتم مبهورة: إن رسمك رائع...

رفعت رأسي لأتأكد... هل أنا في حلم...

ولكنها أكملت مسيرها.. وقالت آمرة: هيا... ابدأن بالتلوين.

بدأت بحماسة لم أعهدها في نفسي من قبل... لقد كان لكلماتها المشجعة أثر السحر في نفسي...

أما هي فقد عادت لمكانها المفضل... بجانب تلك الطالبة... وقالت لها بلطف:

- نعم.. هذا اللون أفضل.. انتظري... امزجي هذين اللونين جيداً... لا... ليس بهذه الطريقة... وكالعادة أخذت فرشاة الرسم..

وبدأت بالتلوين..

انتهيت من تلوين لوحتي... ولأول مرة أحس بالسعادة تغمرني.. بالتأكيد ستعجب المعلمة... وأحقق حلمي الصغير... سأفوز حتماً في المسابقة.. أنا واثقة من ذلك..

كانت هي قد انتهت من تلوين لوحة طالبتها الوحيدة التي تحظى باهتمامها..

ولا عجب

إنها ابنة المديرة...!

وبدأت تدور من جديد..

قفزت فرحة قبل أن تصل إلي... فلم أعد أطيق الاحتمال...

- لـقـد.... لـقـد انـتـهـيـت يـا معلمتي...

نظرت إلي بغضب..

- اجلسي -يا بنت- في مكانك حتى أصل إليك..

غادرتني الحماسة مسرعة كما أتت.. وانكمشت في مقعدي مـرة أخـرى... أبحث فيه عن الأمان..

مـرارة شـديدة ترتفع من أحشائي وتوشك على الخروج.. انكمشت أكثر وازدرت لعابي بصعوبة..

نـظـرتْ بـاشـمـئـزاز إلى لوحتي..

- ما هذه اللوحة...؟؟؟! أنت لا تصلحين لشيء أبداً..

- ولكن... ولكن يا معلمة أنت قلت...

- انسي ما قلته.. ذلك قبل أن تفسدي كل شيء بألوانك القبيحة...

لابد أن تتعلمي كيف تمسكين بالريشة قبل أن تحاولي الرسم... إنك فاشلة تماماً.. الريشة ليست لك..

دعي الريشة لأهلها..

حملقت فيها بعيني الصغيرتين وقد امتلأتا بالدموع الحبيسة..

وما لبثت أن خفضتهما..

وابتلعت ريقي... لقد كان مراً..

مراً كالعلقم.. ولكنني تجرعته..

لقد اعتدت على ذلك..!

طرقات على الباب.. اتجهت إليه المعلمة مسرعة..

- أهـــلاً.. نـعـم.. نـعـم.. لقد انتهيت..

نعم.. اخترت اللوحة..

هناك لوحة واحدة فازت بالجائزة عـنـد نـهـايـة الـحـفـل.. وزعـت الجوائز..

جوائز كثيرة.. لم أهتم بأي جائزة منها.. سوى جائزة واحدة...

رفـعـت رأسـي ونـظـرت للـوحة الـفـائـزة.. كـانـت مـعـلـقـة في مـكـان بـارز.. وقـد أحيطت بإطار جميل.. أحس بالمرارة تزداد.. وتزداد.. تكاد تخرج من فمي.. مرارة لا يدرك عقلي الصغير كنهها..

أحاول أن أتجرعها.. لا أستطيع... إنها مُرةٌ جداً هذه المرة.. لكن لابد.. لابد من تجرعها..

نعم لقد صدقت المعلمة.. لأترك الريشة لأهلها.. فيبدو أنني لست منهم..

ترقرقت دمعة صغيرة على خدي.. أخفيتها بسرعة بظاهر كفي...

نظرت للوحة للمرة الأخيرة.. لقد كانت لوحة تصور عنقود عنب..!

❖❖❖

استيقظت مبكرة.. أسرعت في ارتداء ملابسي..

إنه يوم مميز.. يوم انتظرته طويلاً...

دخلت إلى صالة المعرض مسرعة...

إنها أنا نفس الطفلة.. بشعري الطويل المتهدل على كتفي.. بعيني الصغيرتين.. الحزينتين.. بمرارة أتجرعها صباح مساء..

كل ما في الأمر.. أن قامتي ازدادت طولاً.. وجسمي أصبح ضخماً..

لقد نجحت في إثبات ذاتي.. وأصبحت طالبة متفوقة يشار إليها بالبنان..

لكن ما زلت أشعر بتلك المرارة الخانقة..

الشيء الوحيد الذي لم أتمكن من التغلب عليه..

إنها تلاحقني وتفسد علي كل شيء.. تقتل كل سعادة تحاول الظهور في عالمي الصغير..

حين ترى حقك يؤخذ من بين يديك.. وأمام ناظريك.. وأنت لا تستطيع فعل أي شيء.. سوى الصمت والإطراق..

عندها فقط ستحس بهذه المرارة..

إنها مرارة الظلم..

تلك المرارة التي لم تفارق حلقي أبداً..

دخل وفد نسائي لصالة العرض.. أسرعنا نرحب بهن.. إنها لجنة التحكيم..

أخذن ينظرن إلى اللوحات بإمعان.. ومع كل عضو دفتر صغير تسجل فيه ملاحظاتها..

بدأن من اليسار.. وأخذن ينتقلن من لوحة لأخرى..

وقفن عند إحدى اللوحات.. أخذن يتهامسن.. ارتفعت أصواتهن بهمهمات غير مفهومة..

أحسست بالمرارة تندفع في حلقي.. وترتفع.. وترتفع..

ازدادت دقات قلبي..

إنهن يقفن أمام لوحتي..

اقتربت إحداهن من اللوحة وكأنها تقرأ شيئاً، ثم التفتت إلينا قائلة:

- من منكن هند سالم؟

كاد قلبي يقفز من صدري.. وقفت وأنا أرتجف..

- أنا يا أستاذة.

منحتني ابتسامة كبيرة.. حنوناً.. ثم أكملت مسيرها.

لم أعد أحتمل.. لا أثق بأحد... المرارة ترتفع.. وترتفع... أشعر بها هناك في رأسي..

أوه.. لماذا شاركت في هذا المعرض... إنني...

ولكنها ابتسمت لي... يبدو أنها أعجبتها.. ولكن .. لا...

لا يمكن أن أفوز.. إنني فاشلة.. فاشلة...

المرارة.. إنها ترتفع... بدأت تلف عقلي بضباب خفيف.. أحسست بدوار.. لكن لا...

لابد أن أتماسك.. أف لهذه المرارة اللعينة! ألا تتركني ولو دقيقة واحدة..

أيقظني صوت زميلتي..

- هند.. هند.. انظري هناك..

- ماذا..

- انظري لمن دخل الآن.. هل نسيتها؟؟

كان الضيوف قد بدؤوا بالدخول.. وكانت بينهم.. إنها هي.. لم تتغير كثيراً.. سوى بعض التجاعيد التي بدأ الزمن برسمها حول عينيها..

تقدمت الضيوف.. أخذت تنظر إلى اللوحات، وتنتقل من لوحة إلى أخرى..

وقفت عند لوحتي.. أخذت تحدق فيها بدهشة..

أوه.. المرارة .. إنها هي مرة أخرى.. حاولت أن أتجرعها كما كنت أفعل دائماً.. ولكنها أبت.. بل ازدادت لدرجة لم أعهدها من قبل..

جذبت نفساً عميقاً.. حاولت أن أتماسك..

اتجهت إليها وقد اجتمع في عيني مزيج عجيب من التحدي والعزم والمرارة..

- هل أعجبتك اللوحة يا سيدتي؟؟ ردت بذهول:

- نعم.. نعم.. إنها رائعة جداً... رائعة لم أر مثلها في حياتي.. هل أنت من قام برسمها يا عزيزتي؟

- نعم.

- آه.. إنك رسامة بارعة..

قلت وقد بدا في صوتي شيء غريب لا أعرفه:

- حقاً.. وهل أمسكت بالريشة جيداً هذه المرة؟!

رفعت رأسها إلي مندهشة.. فأكملت وقد لمعت عيناي ببريق لم أعهده:

-ما رأيك هل هذه اللوحة أفضل أم لوحة عنقود العنب؟؟!

فغرت فاها بشدة.. وسقط فكها لأسفل ببلاهة..

في هذه اللحظة سمعت صوتاً يقول:

(الفائزة بالمركز الأول... هند سالم...)

نقلت الزائرة بصرها بيني وبين لوحتي وقالت بشرود:

- أهذه أنت؟

غير معقول..

هل أنت هند الصغيرة؟؟

لا أصدق..

... تركتها واتجهت إلى منصة الحفل.. صعدت بخطوات مرتعشة..

ازدادت دقات قلبي.. ابتلعت ريقي...

لكن هذه المرة لم يكن مراً..

لم يكن مراً على الإطلاق... ■